

القدّيس يوسف النّسّاج



يوسف حبيب

ملكه حبيب يوسف

مقدمة

أونوفر أو أونفر كما يسمى من السواح المظالم الذين عاشوا في القرن الرابع ، شهرته ظاهرة ومعروفة ، وقد استه موضع التبجيل والإكرام . ولكي نبرز هذه السيرة في هذا الترتيب وجعنا إلى المجلدين بالفرنسية :

(1) Les Viès des Pères des Déserts d'Orient
par le rév. père Merin Michel - Ange Avignon
1761 .

(2) Les Saints d'Egypte . par le rév. père
Paul Cheneau Jérusalem

وقابلنا ما ورد فيها بدقة لمعرفة النقاط بوضع الاجماع الموثوق بها ، وبعد نقلها إلى العربية جمعنا متفرقاتها ونسقنا محتوياتها وكذا رجعنا إلى أهم مخطوطات تعالج هذه السيرة وهي مخطوطات دوق بايير باترولوجيا لاتينية جزء ٧٣ كما جاء بها الاب شينو في مؤلفه النفيس . وفيها رواية القديس بفتوق المتوحد

شاهد عيان. وكنا قد ألقينا في سيرته أنه عاصر هذا السائح ووجدنا
القراء بتفصيل هذه السيرة الشريفة .

وإليك هذه السيرة مرتبة في هذا النظام وقد ترجمت أجزاءها
بتصرف كثير مع عدم الاخلال بما أجمع عليه الاجماع ؛ وهذا
عبارتها بعد نقلها إلى العربية وتختارها كثيراً ؛ ووضعنا العناوين
المناسبة ليسهل على القارئ الاستفادة .

يروى القديس بفتوني المتوحد في النصف الأخير من القرن
الرابع هذه السيرة . وقد ولد القديس أبونفر في زمن دقلديانوس ،
والمعتقد أيضاً أنه عاش حوالي ثمانين سنة وأنه تلمذ في زمن
الامبراطور فالنس Valens . ويرجع أن تاريخ نياحته كان في
١٦ يونيو وهو اليوم الذي تعيد له فيه الكنيسة القبطية .

ويؤكد القديس بفتوني أنه لا يروى سوى ما تعلمه من فم
القديس نفسه .

وبما هو جدير بالذكر أن شينو ذكر في مؤلفاته أنه عثر في
بعض أجزاء السيرة على أشياء تبدو غير معقولة ؛ ويخشى أن
يكون بعض اليونانيين المحسدين الذين يميلون إلى الروايات
الخيالية قد أضافوا من نسج خياله ؛ وقال أنه إذا حذف ما كان

مصدره غير موثوق به فالباقي من وحي المؤمنين موثوق به وذكره
برنتو Bulteau في تاريخ الرهبنة الذي ألفه .

وقد جاءت هذه السيرة جامعة لكل الحقائق النافعة
والدروس المستنبطة . نسأل الله أن يعم القراء نفعها ببركات
صاحبها . ولإلحنا العظيمة والمجد إلى أبد الدهور كلها آمين .

† † †

القديس آبا نفر

حياته الديرية

كان آبا نفر راهباً دريباً قبل أن يتوحد حسبما كانت العادة في زمانه . وقد قبِل في الدير وهو شاب وترهب في دير هرموبوليس^(١) بالصعيد كان به في ذلك الوقت حوالي مائة راهب يعيشون بقلب واحد وبنفس واحدة ، يشتركون بحياة كاملة في المائدة ، ويقومون بثني التدريبات الرجعية ، يشارون على العمل اليدوي ويلتزمون الصمت الكامل . وكان من قادة الفكر بعض الشيوخ القديسين يسددون خطواته الأولى في طريق الكمال ، فيذكرونه مراراً كثيرة بالمثُل العظيمة التي في الكتب المقدسة : إيليا النبي وأنعابه في الصحراء ، يوحنا المعمدان وحياة العزلة التي عاشها حتى ساعة ظهوره للعالم ، ورأس الكمل ربنا يسوع المسيح الذي صام أربعين يوماً في الجبل . فكان أوتوفر الشاب يستوعب هذه الدروس بفهم وسعد أن أتبع له ما يساعده على السير في طريق الفضيلة في الحياة التي اختارها .

وكان بسود النظام والطاعة فكل واحد يسلك في الدير حسبما

(١) الأثوميين مسكن النيا .

يأمر به القانون . وكانت قرارات رئيس الدير تقوم مقام القانون . وكان الرهبان في هذا الدير يحفظون أنفسهم في حالة تأمل دائم ويركزون أفكارهم في وجود الله ، وما كانوا يقطعون الصمت إلا إذا كان يفضل الكلام . وكان الجميع يجاهدون من أجل التقدم في التقوى ، يعبدون الله ليلاً ونهاراً ، وهم مخلوون بالإيمان الحى والمحبة المنوقدة والزهد في العالم والصبر والوداعة والفسك ، وبالجملة كانوا يتحلون بأبهي الفضائل بشكل عجيب فيما بينهم ، وكانوا متحدين بثبات حتى ليبدو أنه ليس لهم سوى إرادة واحدة . وفي شركتهم كان ما برضى الواحد بسر الآخرين أيضاً .

تلك كانت الدروس التي تلقاها أوتوفر في شبابه ؛ فكانت تترك في نفسه أثراً لا يمحي وتملأ قلبه بحياة عظيمة لله لدرجة أنه كان أحياناً يشعر بأنه يسمو في عالم آخر .

† † †

كان القديس ابونفر يسأل أحياناً هذا السؤال وكان الرد كالآتي:

« نعم ، لاننا في الاديرة نعاشر بعضنا بعضاً كل يوم ، ولنا تدريبات مشتركة ، ففي ساعة الغذاء نحمد الطعام معهداً ؛ وإذا مرض أحد يموده زملاء شفقون ؛ وعند الحاجة يلتمس بعضنا العون عند البعض . أما في الصحراء ، فليس شيء من هذا . في التجربة لن يحضر إليك من يعزيك ؛ وإذا احتجت إلى الطعام أو الشراب فلن يعده لك أحد .

فضلاً عن أنه على الإخوة الذين يجيئون حياة التوحد أن يعملوا كثيراً ويتألمون من أجل محبة الله ؛ أنهم يتعمون كثيراً من التدريبات الشاقة ضد الطبيعة ، ويمتلئون الجوع والعاش بفرح ، ويجاهدون كثيراً ضد الجسد ويركضون في طسريق الخلاص الصديق ، ولا يؤخرهم غضب الشياطين . ولكن السماء تكافئهم بطريقة عجيبة ...

وهكذا يتحقق ما كان يقوله أشعيا النبي : « وأما منتظرو الرب فيجدون قوة . يرفعون أجنحة كالنسور . يركضون ولا يتعبون يمشون ولا يعيرون ، أش ٤٠ : ٣١ .

إقامة القديس بالدير

يمكننا أن نستنتج من تاريخ القديس أنه لم يمكث بينهم سوى سنين قليلة . فبالرغم من أنه دخل الدير صغيراً ، إلا أن مدة إقامته في الصحراء لمدة سبعين سنة لا تترك فترة طويلة من الزمن بين وقت دخوله ووقت خروجه من هذا الدير .

لم يكن قراره بترك شركة اخوته الذين كانوا يجيئون وكان يحبهم بشدة ، عن رغبة جامحة أو خروجاً عن نير الطاعة الخلاصي ؛ وعرفنا أنه كان يسمعهم في أحاديثهم يمدحسون المتوحدين في الصحراء مثل إيليا ويوحنا المعمدان ، الذين كانوا يقاومون هجمات الشياطين بشجاعة متناهية ، ويمدشون لمحبة الله في حرمان من كل تعزية بشرية طوعاً ، ويقدمون أنفسهم بدون إنقطاع ذبيحة ليسوع المسيح بأعمال التوبة ، ليس لهم غير الله سنداً وقد وضعوا فيه كل ثقتهم .

لم يكن يستغرب هذه المعيشة المتعارفة للطبيعة ، وشعر في حرارة نفسه برغبة شديدة في هذه الحياة . على أنه لم يتدفع بدون روية ، فبعد تفكير عميق شرع في التهذيب .

انتبه سكون الليل لكي ينسحب من محبة إخوته العميقة ؛
فلو علوا لكانوا يتدبرون في أن يستبقوه باصرار . ولم يأخذ
معه سوى رغيف خبز واحد وبعض الخضروات تسكاد تكفيه
لمدة أربعة أيام ، واتخذ طريقه ناحية الجنوب عبر الجبال التي
تفصل الواحة الكبيرة عن الصعيد الأسفل .

وفي رواية أخرى أنه ذات ليلة لم يستطع أن يقاوم ميله إلى
الوحدة ، فقام وأخذ بعض الخبز وبعض الدقيق يكفيه لمدة
أربعة أيام ، وتوغل في الصحراء ، وهو يصلى إلى الله ليقوده
حسب مسرته . ووسط الجبال رأى تورا ساطعاً . تخاف وأراد
أن يرجع إلى الوراو ويسود إلى ديره . ولكن ملاكاً ظهر له
قائلاً : أنا ملاكك الحارس ، لم أتركك منذ كنت في المهد ،
فلا تكن قلقاً وتقدم إلى الامام دائماً وسوف تصل أخيراً إلى
المسكن الذي أعده الله لك .

وسارا كلاهما معاً يوماً آخر في هذه الأرجاء غير المأهولة؛
ورأى أبونفر مقبرة عميقة فتوقف بعمل المفاجأة وبسبب نور
باهر مفاجيء . حتى كان يفكر في العودة إلى الدير ولكن ملاكاً

ظهر له وشجعه على استئناف السير . أنه ربما كان يسكنها قديس
من المتوحدين . وسرعان ما تحقق ذلك . فقد قرع أبونفر الباب
وقال كلمة السر التي يعرفها المتوحدون : باركني .

حينئذ تقدم رجل طويل القامة ، على وجهه سيماء الثبل ، وقد
اكسبته صلته بالله هيئة خاصة . فعند رؤيته ركع أبونفر وقبل
قدميه ولكن الشيخ المتوحد أقامه من يده وقال له : يا أبانوفر
أنت أخى في الرب . أدخل واسترح لبضعة أيام ، ثم بعد ذلك
تبع السيرة التي أوحى بها الله لك .

وفي رواية أخرى أنها سارا معاً لمدة أربعة أيام وأربع
ليال . وأخيراً رأيا مقبرة وبجانها نخلة . فقال الشيخ : هذا هو
المسكن الذي عينه الله لك على الأرض يا بنى .

وسكن الشيخ معه ثلاثين يوماً ، كان في أثناءها يعلمه بأعماله
وبكلماته عارسة أعلى الفضائل ، ثم تركه ، بعد أن وعده بالزيارة
مرة واحدة كل سنة . وقد أوفى وعده حتى اليوم الذى تفتيح فيه
أثناء زيارته للقديس .

الملاك يرشد القديس

بعد ترك القديس الدير أمضى ستين^(١) عاماً في البرية ثم اصطحبه الملك في طرفه وأعطاه نصائح ممتازة عن الحياة التي كان خليقاً أن يحيها .

واقتراده إلى مغارة أحد المتوحدين ثم اختفى . نعم انتادات العناية الإلهية متوحداً آخر إلى أعماق الصحراء ، كان يتطلع إلى معرفة ما إذا كان هو الوحيد الذي يحيى من أجل الله . و الترحد بفنوتى لا تكاد تؤمنه تكفى لمدة أربعة أيام . وساوره القلق لما رآها تنفذ . لكنه لم يكن يتهادى في القلق بل سلم نفسه للعناية الإلهية . فشمس بقوة غير اعتيادية جعلته يسير لمدة سبعة عشر يوماً دون أن يفكر في أن يأكل شيئاً . ولجأة كان له أن يرى القديس أبو نوفر ؛ وكان شعره طويلاً غير مرتب ، ولحيته طويلة جداً تتدلى على جسده ، يمتدق بحزام من الأوزاق العريضة .

عاف وتصور أنه أمام لص يبحث عنه البوليس الامبراطورى منذ زمن طويل ؛ فتسلق قبة تل قريب وهو يداوم النظر إلى الشخص العجيب حتى توقف . وعند السفح جلس الشيخ

(١) وليل سبعون .

في الظل وتبدو عليه دلائل التعب . وكان شيخاً مسناً يعاني آثار الحرمان من أشياء كثيرة . فبعد أن استراح قليلاً ، سالت منه لئلفانة إلى القمة وإذا رآه صرخ بصوت عال قائلاً : « انزل أيها الراهب القديس . انى أسكن هذا القفر من أجل محبة الله » .

وتقدم أونوفر حسب عادة المتوحدين طالباً بركة الشيخ القديس فخرج من مغارته ولما رآه ساجداً أقامه وقبله قبله السلام واستقبله بكل مظاهر المحبة .

† † †

قال ابونفر :

« منذ ستين سنة أقم في هذه الصحراء وأنحول في الجبال الموحشة وأنغذى على الحشائش البرية وثمار الخلة ، وهى علامة مكان إقامتى . ولم أر انساناً سواك طوال هذه المدة . »

فقال بفتوتى : « أيها الاب ، اخالك تأملت كثيراً في بداية هذه الحياة المنعزلة . »

« نعم يا بنى تأملت للدرجة انى يمست من الحياة لشدة ما قاسيت من الجوع والعطش ، وكنت أعانى كثيراً من جساء توالى حرارة النهار وبرد الليل القارس المفاجى . ولكن الله نظر إلى ضعفى وسلامة قصدى . فإنه عندما نكل مشيئته نختبر دائماً فعل عنايته . »

كان الحماس يستولى على بفتوتى عند سماعه هذه التفاصيل العجيبة منه . ثم أخبره أيضاً أن كثيراً ممن يسكنون القفار يتمتعون بعطايا جليلة حتى أن منهم من يُحملون إلى السماء حيث ينظرون القديسين في مجدهم ويتהלون بفرح لا تعرفه الأرض . وحيثما يمنح المرء غيراً كهذا ، فهو لا يفكر فيما بعد في هذا العالم .

وكان أسلوب الشيخ المتوحد ومجانب حياته الطويلة قد جعل القديس بفتوتى يفتى كل أتعابه . وكان يشعر بالقوة جسدياً وروحاً ، وأخذ منه العجب كل ما أخذ فلم يفكر في تناول أى طعام ؛ حتى سأله ابونفر قائلاً : « يا أخى لقسم الآن ونذهب إلى مكنتى ، . وكان على مسافة بضعة أميال ؛ ولكن الحديث جعلهما لا يشعران بطول الطريق . ودخلا المقارة عند غروب الشمس . وكان على الأرض الصخرية رغيث وقليل من الماء . فقال ابونفر : « هلم يا أخى شاركنى هذا الخبز وهذا الماء ، لأنك متعب جداً من رحلتك الطويلة . » فأكلتم أمضيا الليل كله في الصلاة .

† † †

كان يستعلم عن واجبات حياة التوحد ، ليتعود بمثال معلمه الجديد على ضروب هذه الحياة . وبعد أن عرف الشيخ رسوخه وأنه في امكانه الاستغناء عن تعاليمه ، قرر له الوقت الملائم الذي فيه يقف على قدميه وحده ؛ فيقتاده إلى المسكن الذي أعدته العناية الإلهية لسكناءه .

وقيل أنه قبل بفرح دموع أحد القديسين^(١) ، إذ كان يشاقق أن يعرف منه بعض ما يمارسه في حياته الجديدة . وقد استفاد الراهب الشاب من هذه الصحبة المقدسة ؛ ولما حان وقت الفراق في الصباح أعلنه الشيخ قائلاً : « قم يا بني ، فسوف أقودك ؛ ووصل إلى صحراء موحشة تحوطها الجبال حيث أراه الشيخ مغارة قال له عنها أنها المسكن الذي عينه له الله . وبقي معه أيضاً شهراً يساعده ليتقوى أكثر وأعطاه نصائح مقدسة . ثم استودعه الرب وعاد إلى مكان اقامته المعتاد .

† † †

(١) جاء في أحد المخطوطات أن اسم هذا القديس «هرمس» Hermés .

كان الشيخ يزوره مرة واحدة في كل سنة ولم يستمر ذلك لمدة طويلة على ما يبدو لانه كان متقدماً جداً في أيامه . وفي النهاية مرض أثناء زيارته له وأسلم الروح بين ذراعيه بعد حياة حافلة في شيخوخة صالحة واستحقاقات كثيرة ، ودفن بيدي القديس أونوفر .

ولم يحرم أبونفر التعزية التي كان يأخذها من أبيه الروحي لحسب ، بل كان أيضاً يتألم كثيراً في صحرائه ، بالاختصاص قبل أن يعتاد على الجوع والعطش وتقلبات الجو ، وأيضاً من جراء التجارب المختلفة التي كانت تواجهه .

وقد اعترف للقديس بغيره في التوحد أنه كان أحياناً يجد نفسه منهوك القوى لدرجة أنه لا يبقى فيه سوى أنفاس تتحرك ، وكأن روحه على وشك أن تفارق جسده ؛ ولكنه كان يتعزى برجاء الخيرات الأبدية ، طالماً أن الله الصادق في مواعيدِه قد أعد في السماء ثقل مجد عظيم لمن كانوا أمناء .

كان يتغذى فترة من الوقت بالأعشاب البرية التي كانت تنمو حول مغارته ؛ وفيما بعد أضاف إلى هذا الغذاء بعض البلبخ وجدده في مكان قريب كان يفتش الأرض الجرداء ، تارة بداخل مغارته .

اعتناء الله بالقديس

ويبدو من المواهب التي أخذها من الله ، أنه بقدر اشراق قداسه كان تساميه في الحرمان من كل تعزية بشرية ، وكانت له مواهب السماء : حتى أن الله ، بعد التجارب كان يملاً قلبه عزاء ونعيماً ، وكان يتناول كل يوم أحد من خبز الحياة ، أى جسد الرب يسوع المسيح ؛ ولم يكن له اهتمام بالطعام الجسدى ؛ فليس له رغبة سوى أن يرضى الله ، وليس له عمل سوى أن يسبح الله ويحبه ، فكل غاية أن يكرس نفسه لله . وما كان يتوق إلى هذه الغاية السعيدة لكبر سنه بقدر ما كان يتوق إليها ببضات قلبه المتدفق بالحب .

+ + +

وطوراً في الوادى أو في الجبل ، حسب المكان الذى يفاجئه فيه الليل أتماء صلواته . كانت مياهه بالية تماماً ولم يجد ما يستر به جسده غير الشعر الطويل المسترسل على جسده ، وحزام من ورق الشجر .

وعاش على هذا الحال لمدة سبعين سنة لم يرفهها غير الشيخ القديس الذى اقتاده إلى هذه الخلوة ، وسعد القديس بفنوق بمقابلته . ولم يكن يعلم شيئاً عن مظهره ، فاعتراه الفرع إذ تراه نحيفاً لا غاية ومغضى بالشعر ، لدرجة أنه خشى أن يكون شبحاً . فركض بكل قواه لى ينجيه . في الجبال ، وما كان يحسر على النزول أبداً ، حتى صاح إليه أبو نعر الذى فهم خوفه . ألا يخشى شيئاً وأنه إنسان مثله .

وإذ أفاق من الخوف بهذه الكلمات ، لم يشك في أن ذلك كان بفعل العناية الإلهية ، إذ كشف الله له لأجل منفعة عن متوحد ذى فضيلة قائمة كما كان يرغب في ذلك أتماء جولاه في الصحارى البعيدة . فأخذ يتحدث إليه وسأله عن اسمه وعن كل تدبير حياته ، متوسلاً إليه ألا يخشى عنه شيئاً .

أما القديس أونوفر فكان يتكلم بحمى دون أن يكون في كلامه شيء من الفرور ، فكان يرضيه ببساطة في كل الأسئلة التي يوجهها إليه . وأعلن له بالتفصيل ما كان منه والنعم التي إختصه الله بها إلى ذلك الحين برحمته غير المتناهية .

الحديث الأخير

قال بفتوتى : يا أبى إذا كنت نحسبى مستحقاً ، أسمح لى
أن أتكلم مكان معلمك منذ الآن .

قال : يا بنى ، انك لم تأت لى تسكن فى هذا المكان ؛
ان الله أوحى إليك بهذه الرحلة لى تدفننى لحسب ، وبعد وفاتى
لك أن تعود لى مصر . فتأبر على أعمالك الصالحة حتى الموت من
أجل محبة يسوع المسيح .

فسأله القديس بفتوتى قائلاً : على الأقل يا أبى ، باركنى
حتى يرحمنى الله أنا أيضاً .

أجاب القديس أبونفر : يا بنى لىكن لك ذلك . وليحفظك
الرب من كل سهام العدو ، ولتحمرك ملائكته ساعة الموت .

ولما دنت ساعة نياحته قام للصلاة بدموع كثيرة ، وركع
على الأرض وقال : يا الله فى يدك استودع روحى . وعند
هذه اللحظة أحاط به ضوء سماوى فأسلم روحه فى هذه الحالة
التقوية .

ويؤكد القديس بفتوتى الذى روى ذلك كشاهد عيان ، أن
الملائكة كرمت وفاته بالترانيم كما أنه كان متأثراً للغاية ومنذ هلا

نياحة القديس أبونفر

أرسل الله له القديس الأنبا بفتوتى ، كما أرسل القديس الأنبا
أنطونيوس لى القديس الأنبا بولا المتوحده ؛ لى يعرف المؤمنين
بقداسة حياته . وبعد أن قضى القديس بفتوتى الليل فى الصلاة
معه ، رأى فى الغد تغيراً عظيماً على وجهه وشحوباً كمن يسلم الروح .
فاضطرب خشية أن يفقده سريعاً ؛ لكن القديس عزاء وأقر أنه
فى نهاية سعيه . وأعطاه بعض التعاليم من أجل خلاص نفسه .
وفى رواية أخرى أنه عند شروق شمس الغد رفع بفتوتى
عينيه نحو الشيخ المتوحده فوجد وجهه متغيراً يعلوه شحوب الموت
فاعترأه خوف شديد ، فقال له القديس أبونفر :

وماذا هذا الاضطراب يا أختى ؟ ان الله المحسن لى عبده
إنما إقتادك لى هذا المكان لى تقوم بالواجبات الأخيرة نحو
جسدى . فاليوم يغمرنى الله فعلاً بإحساناته وأدخل الراحة
الأبدية .

أما أنت أيها الاخ المحبوب ، فستعود لى مصر وتعرف
الناس لى وجهت صلاة خاصة لى الله فاستجابها : فكل من كان
فى تجربة والتجأ لى يقنذه الله .

المراجع

(1) Les Vies des Pères des Déserts d'Orient
par le rév. père Marin Michel - Ange. Avignon
1761 .

(2) Les Saints d' Egypte.
par le R. P. Paul Cheneau, d'Orléans Jérusalem
1923 .

(٣) مخطوطة مكتبة دوق بافيرا

باترولوجيا لانيية جزء ٧٣

(شينو عن القديس بفتوق)

لرؤيته هذه العجائب . وهكذا رقد رعدة الطوبايين . وفي نفس
اللحظة كان الملائكة يملأون الجو بترائيل مقدسة .

وأثناء الليل ، خلع الاب بفتوق ثوبه الكتان وقسمه إلى
قسمين دفن جسد خادم الله بأحدهما ؛ واحتفظ بالقسم الآخر
ليحتمي به من برد الليل . وكان بالقرب من المكان صخرة على
شكل وعاء ، فوضع فيها جسد القديس ، وهو يعلى ويسكب
الدموع ، وكانت عيناه مثل نبع ماء دائم ، وتملكته مشاعر الحب
والإخلاص حتى أنه لم يكن يريد مطلقاً أن يفارق المكان ، حتى
يصير وارثاً للبركة من مغارته . لكنّها لم تكن ممددة له ، فلما
قام ليلاق النظرية الأخيرة على المغارة التي قدسها أنوفر الطوباي
بعد أن وارى جسد القديس التراب ، انهارت المغارة وكذا
التخلّة من تلقاء ذاتها وجفت عين الماء أيضاً ؛ كما قال القديس .
بركة صلواته تكون معنا آمين ؟

† † †